المبحث الثالث

الحالة الاجتماعية فى عصر القاضى محمد بن يحى

- السطان وأعوانه .
- طائفة الموظفين .
- طائفة الفقهاء والعلماء .
- طائفة العامـــة .
- مظاهر الحياة الاجتماعية .

obeikandl.com

obeikandl.com

الحالة الاجتماعية فى عصر القاضى محمد بن يحيى

عاش القاضى محمد بن يحيى فى ولاية «مالقة» بالأندلس تحت حكم بنى الأحمر فى مملكة غرناطة ، فى منطقة تتسم من قبل مجئ محمد بن يحيى بعدم الاستقرار نظرًا للصراع المتمثل فى الحروب الصليبية، وشدة ضغط النصارى على المسلمين، وزيادة عن ذلك تفرق المسلمين أنفسهم.

غير أن قدوم بنى الأحمر، ومحاولتهم جمع الشمل وتوحيد أكبر قدر من مدن الأندلس لأنشاء دولة قوية وإيجاد مجتمع مترابط ، يقف الجميع فى وجه العدو الصليبى ، كل ذلك كان أمرًا واجبًا ولابد وأن يحدث، وقد تحقق ذلك لمدة تفوق عصر المؤلف إلى ما بعد وفاته بكثير من السنوات، ورغم ذلك فإن المجتمع لم يخل من الصراع والاضطراب والاستعداد للحروب وتحمل الهزيمة وغير ذلك من الأمور التى تعطى المجتمع صبغة المجتمع غير المستقر.

وهذا المجتمع يضم بين جنبيه أصحاب ديانات مختلفة منهم المسلمون ومنهم النصارى وهاتان الفئتان لا يخفى أمرهما على أحد لما بينهما من الصراع ، كما يوجد أيضا اليهود. وقد أخذ السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل أمير المؤمنين بالأندلس يهود الذّمة بالتزام سمة تشهرهم، وشارة تميزهم، وليوفّى حقهم فى المعاملة التى أمر بها الشارع فى

الخطاب والطرق، وهى شواشى صفر [١].

لقد حفل مجتمع الدولة النصرية بعدد من الفئات والطوائف المختلفة التى تمثل المجتمع كله بشتى جوانبه ، مثل :

السلطان وأعوانه :

تتكون هذه الطائفة من السلطان والأمراء والوزراء وتقوم هذه الطائفة بإدارة البلاد، ورسم السياسة الخارجية والداخلية وإقامة المنشآت العامة، والمحافظة على أمن البلاد. ومن السلاطين من وضع ألقاب خدمة الدولة، وقدّر مراتبها، واستجاد أبطالها، وأقام رسوم الملك فيها، واستدر جبايتها ، كالسلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٠١ هـ، الذى كان يؤثر العلماء من الأطباء والمنجمين والحكماء والكتاب والشعراء، وكان يقرض الأبيات من الشعر [٢]. فكثير من السلاطين يجلّ العلماء ويعرف مقاديرهم، ومنهم من كان يقرض الشعر ويصغى إليه ويثبت عليه كالسلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠ هـ ، والذى كان يجيز الشعراء ويرضخ للندماء أى يبذل لهم العطايا، ويواكل الأشراف والرؤساء، ضاربًا فى كل اصطلاح بسهم مليّا من كل تجربة وحُنكة.

ولا ينكر أحد دور هذا السلطان الذى من أعظم مناقبه ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة على ما هو عليه من الجمال والفخامة والإحكام والإبداع [٣]. وكثير منهم كان مهتمًا بالعلم والعلماء أيضا كالسلطان نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٢٢ هـ ،

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١ / ٣٨٨.

(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٣٨ .

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان بن الخطيب ١/ ٥٤٥ ـ ٥٤٧.

فقد كان محباً فى الخير وأهله آخذاً من صناعة علم الفلك بحظ رغيب، وقد كان يخطّ التقاويم الحسنة والجداول الصحيحة الظريفة، ويصنع الآلات العجيبة بيده. ورغم ذلك إلا أنه أجرى الألقاب والعوائد لأول دولته، وكانت أيامه كما شاء الله ، أيام نحس مستمر شملت المسلمين فيها الأزمة، وأحاط بهم الزعر[١].

لقد علمنا أن واجب السلطان والأمراء الحفاظ على أمن البلاد وحماية الدين والدفاع عنه، فنجد السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد ت ٧٢٥ هـ قد اشتد على أهل البدع وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملّة، وقد تُذُوكر يومًا بين يديه أصول الدين فقال : أصول الدين عندى « قل هو الله أحد » وهذا، وأشار إلى سيفه. وأعتنى أيضًا بأهل بيت رسول الله ﷺ فبذل فى فداء بعض أعلامهم ما يعزّ بذله، واشتدّ فى إقامة الحدود وإراقة المسكرات . وجعل لليهود فى المجتمع علامة يعرفون بها وسط الناس وشارة تميزهم لكى يوفوا حقهم من المعاملة كما أمر الشرع الحنيف [٢].

ومن السلاطين من اهتم ببناء المدارس العلمية. ففى عهد السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف ت ٧٥٥ هـ بنيت المدرسة العجيبة بكر المدارس فى حضرته فكملت وتمت أوقافها [٣]. وإن من مهام الوزير حفظ الأمن وتدبير شئون البلاد والعمل على استقرارها ولكن منهم من يخالف ذلك كما حدث مع الوزير أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن اللخمى الرُّنْدى وزير السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠ هـ فقد صرف إليه السلطان تدبيره

(١) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٥٧.

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١/ ٣٨٧ ، ٣٨٨.

(٣) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٩٦.

وألقى فى يده أزمة الملك، فلم يلبث أن تغلّب على أمره وتقلد كافة شئونه [١].

طائفة الموظفين:

أصبحت طائفة الموظفين من أظهر الطبقات فى المجتمع بعد طبقة السلطان والأمراء والوزراء ، ونتيجة لاحتياج دولة بنى الأحمر إلى الموظفين فشكلت دورًا هامًا فى المجتمع . وكان نفوذ هذه الطائفة من الموظفين يختلف باختلاف مناصبهم ومدى اتصالهم بالسلطان وكان من أبرز هذه الطائفة الكتاب والحجّاب والقضاة، فقد أدى تعدد الدواوين فى دولة بنى الأحمر إلى تعيين طائفة من كبار الموظفين، وكان كل من هؤلاء الموظفين يسمى «الكاتب» وكان من أشهرهم فى عصر القاضى محمد بن يحيى المالقى ، أبو بكر بن يوسف اللوشى اليحصبى، ثم الأخوان أبوا علىّ الحسن والحسين ابنا محمد بن يوسف بن سعيد اليحصبى اللوشى ، فقد تولوا تباعًا خطة الكتابة والرياسة العليا لقلم الإنشاء جملة . [٢]

ومنهم ـ أى من الموظفين ـ مَنْ يكون فقيهًا محدثًا فيتولى كتابة الإنشاء مثل أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الزيدى، وذلك فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠ هـ [٣] .

وكان من بين الوزراء من يستقل برياسة القلم الأعلى كالوزير الكاتب أبى عبد الله بن عاصم فى عهد السلطان أبى عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠ هـ [٤].

---

(١) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٥١ .

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١/ ٥٥٩.

(٣) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٤٠.

(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١/ ٥٤٩.

ومثل الفقيه الكاتب أبى جعفر بن صفوان المالكى الذى كتب للسطان إسماعيل بن فرج ابن إسماعيل بن يوسف ت ٧١٣ هـ . فقد كتب عنه لأول مرة «بمالقة» بلدة القاضى محمد بن يحيى، ثم بطريقه إلى غرناطة. (١)

وكانت وظيفة الحجابة من الوظائف الرئيسية فى الدولة، فقد كان دوره تنظيم الاتصال بين الناس والسلطان، ويعدّ من رجال البلاط، ومن الممكن أن يوليه السلطان الوزارة، كما حدث مع الحاجب أبى النعيم الذى استبد عليه فى تنفيذ الأمور وتقديم الولاة والعمال، وجواب المخاطبات وتدبير الرعايا وقَوْد الجيوش . (٢)

ومثلت طائفة القضاة أيضًا جانبًا هامًا فى الحياة الاجتماعية، وتنظيم الأمور على يد المخالفين، وكان المؤلف من بين هؤلاء القضاة الذين تولوا أحكام القضاء لاثنين من سلاطين الدولة النصرية، فقد تولى القضاء بالنسبة للأحكام الشرعية فى عهد السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد ت ٧٣٣ هـ واستمر له منصب القضاء إلى تمام مدة السلطان، واستمر تولى المنصب فى أيام السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد ت ٧٥٥ هـ إلى يوم الوقيعة الكبرى التى فُقِدَ فيها .(٣) كما تولى فى حياة القاضى محمد بن يحيى قضاة آخرون يمثلون هذه الطائفة ذات الأهمية القصوى فى الدولة منهم :

أبو بكر محمد بن فتح بن على الأشبيلى ، الذى كان صارمًا فى

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١ / ٣٨١.

(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٩٠ والإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ٤/ ٣١٩ ، ٣٢٠.

(٣) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٨٢ ، ٩١.

منصبة مما جعله يخدم المجتمع فى ذلك العصر محافظًا عليه من الانحراف أخذًا بيد مجتمعه إلى الإمام وإلى أحسن حال، وقبل أن يتولى منصب القضاء كان متوليًا خطّة السوق، فلقى سكرانًا من الجند، قد أفرط فى الأنحراف وأشتد فى العربدة وحمل على الناس، فأفرجوا عنه فأعترضه بنفسه، وقبض عليه واستبصر فى حدّه وبالغ فى نكاله، واشتُهر ذلك عنه ، فجمع أمر الشرطة وخطة السوق ثم ولى القضاء بعد ذلك [١].

وكان السلطان يغبط القضاة نتيجة أعمالهم التى دلت السلطان على محلهم من العدل والفضل، كالقاضى العدل أبى عبد الله محمد بن محمد بن هشام ت ٧٠٤ هـ فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٠١ هـ وابنه السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠هـ .[٢]

طائفة الفقهاء والعلماء :

من المعروف أن هذه الطائفة بين طوائف المجتمع، هى حلقة الوصل بين الحاكم والرّعية وأن لها الدور الكبير والهام فى المجتمع، لأنهم محلّ ثقة الناس واحترامهم. والحاكم يعتمد عليها فى كسب تأييد العامة له ، وفى إثارة حماسهم للجهاد وترغيبهم فى الإنفاق فى سبيل الله ، وتوجيه الناس وارشادهم عن الحلال ،والحرام.

وقد اهتم السلطان بهذه الطائفة ـ فى عصر القاضى محمد بن يحيى وذلك بإتيان كل تصرف يرضيهم ويجعله يحوز على تأييدهم، فقد بنى السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١ / ٥٦٠.

(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ٤١ . ٥١.

ت ٧٥٥ هـ المدرسة العجيبة بِكْر المدارس وتمت أوقافها [١] ومن قبله اهتم السلطان نصر بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٢٢ هـ بالعلم والعلماء وكان من المشاركين فى مجال العلم، فأخذ من علم الفلك بحظ وافر، وكان يخط التقاويم والجداول الصحيحة، ويصنع الآلات العجيبة [٢]، حبًا فى العلم وأهله [٣].

كما عمل السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٠١ هـ خلال عصر القاضى محمد بن يحيى على ايثار العلماء من الأطباء والمنجمين والحكماء والكُتّاب والشعراء [٤].

وكان السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠ هـ يصغى للشعر ويثيب عليه، فيجيز الشعراء ويرضخ للندماء، ويعرف مقادير العلماء [٥].

طائفة العامة :

هى الطائفة التى يقوم على كاهلها اقتصاد البلاد، وبهم تروج التجارة ويزدهر العمران ، وتتقدم الصناعية ويكثر الانتاج الزراعى وغيره. مما جعل لهم دورًا بارزًا فى الصناعة والتجارة، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الأسلحة ومصانع النسائج والجلود والسكر إلى إفريقية والشرق بواسطة تجار اليهود والبربر.

كما بلغوا فى الزّراعة براعتهم فى العلوم والصناعات، وأدخل العرب إلى حقول الأندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والأرز والقطن

---

(١) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٩٦.
(٢) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٥٧ .
(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ٣/ ٣٣٤.
(٤) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٣٨.
(٥) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١ / ٥٤٥.

والمـــوز [١]. وكان العـوام من البربر ومن سـكان البلاد القدمـاء على الخـصـــوص.[٢] وقـد شـجعـت الدولة طائفـة الصناع ، وازدهرت الصناعات، مثل : منتـجات المناجم ومعامل الأسلحة ومـصانع النسائج والجلود والسكر، وبلغـوا مبلغًا عظيـمًا فى البناء وتشيـيده مثل : قـصر الحمراء الذى أمر بإنشائه السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠ هـ الذى تتـجلى فيه وفى غيره من المبـانى عظمة الفن المعمـارى العربى والأندلسى، هذا القـصر الذى أقيم على منحـدر جبل «شلير» الذى يُشرف على مـدينة غرناطة وعلى المروج الواسعة الخصـيبة والذى يعدّ من أجمل أمكنة العالم [٣].

مظاهر الحياة الاجتماعية :

إن مظاهر الحياة الاجتماعية تعكس لنا صورة المجتمع، أو جانبا كبيراً من حياته، فوجود مجالس الطرب والغناء والشراب تعد ظاهرة اجتماعية ولكن القائمين على أمر البلاد لابد وأن يكون لهم موقفًا إيجابيًا من مثل هذه المظاهر حتى تسود المجـتمع روح الجدية والاستقامـة، وهذا ما كان موجودًا فى عصـر القاضى محمد بن يحيى المالقى، فـقد اشتد السلطان إسماعـيل بن فرج بن إسماعـيل بن يوسف الخزرجى ت ٧٢٥ هـ على هذه الظاهرة، واشـتد فى إقـامة الحـدود وإراقـة المسكرات وحظر تجلىّ القنات للرجال فى الولائم، وقصـر طربهم على أجناسهم من الناس [٤] كما كان لأهل البدع وجود فى تلك الفترة، فاشتد السلطان إسماعيل بن فرج عليهم، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة.

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٢٧٤.

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٢٧٦.

(٣) حضارة العرب لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٢٧٤ ، ٢٩٣.

(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١ / ٣٨٨.

كما وجد فى ذلك المجتمع أجناس متعددة من مسلمين ومسيحيين ويهود، وقد أخذ السلطان إسماعيل بن فرج يهود الذّمة بالتزام سمة تشهرهم، وشارة تميزهم ليوفوا حقهم من المعاملة التى أمر بها الله عز وجل [١] إن أحوال المجتمع الذى عاش فيه القاضى محمد بن يحيى المالقى من حيث الدين وصلاح العقائد، أحوال سنيّة، والنِّحل فيه معروفة، ومذاهبهم على مذهب الإمام مالك بن أنس، وطاعتهم للأمراء محكمة، وأخلاقهم أبيّة فى معانى المنازعات، وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير، وقوتهم البُرُّ الطيب عامة العام، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضعفة والبوادى والفعلة الفلاحة الذّرة الرفيعة.

كما يدخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام إلى غير ذلك من التّين والربيب والتفاح والرمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك [٢].

والمرأة فى ذلك العصر عُرف عنها الجمال وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ونقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المحاورة [٣]. والواقع أن مظاهر الحياة الاجتماعية واصلت سيرها الطبيعى ، وجعلتهم يهتمون بالمظاهر البراقة كالمبانى واللوحات الجميلة.

ووجه العرب فى بلاد الأندلس نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون ، فأكثرروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادّق والمشافى والمساجد فى كل مكان.

كما كان تأثير الفن المعمارى العربى فى فن عمارة النصارى الذى حلّ

---

(١) الدولة النصرية للسان الدين بن الخطيب ص ٧١.

(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١ / ١٣٤ ـ ١٣٧ .

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ١ / ١٣٩.

محله فى أسبانيـا عظيمًا إلى الغاية، وكان النصارى يستـخدمون العرب قبل إجلائهم فى إقامة المبـانى أو الإصلاح، فنشأ عن تمازج الفنين ظهور الفنّ المدجن الجديد [١]. وكانت الإمامة الثقافية للعرب فى البلاد، وأما العوام فكانوا من البـربر ومن سكان البلاد القدمـاء، وكان باب المناصب مفتـوحًا للنصارى ، وكان النصارى يـستخدمون فى الجـيش غالبًا، ولم يكن توالد المسلمين والنصارى غير قليل .[٢]

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٢٧٤ ، ٥٤٣.

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٢٧٦ .

obeikandl.com